

كثرة البطولة أو ندرتها ؟

للاستاذ عباس محمود العقاد

لخص العالم الفاضل الأستاذ أحمد أمين ما بيننا من خلاف على مسألة النبوغ والبطولة في ختام مقاله فقال :

« عصرنا الحاضر طابعه طابع المؤلف والمعتاد لا طابع النابغة والبطل ، وإن كان مألوفنا ومعتادنا أرقى من نابغة القرون الماضية وبطل القرون الماضية

» إن كان هذا - يا أخي - هو الذي أردتُ فأظن أنه لا يرد على بمزاي العصر الحاضر ، وعلم العصر الحاضر ، وفن العصر الحاضر . وإذا كان النبوغ في السبق وكانت المقارنة بين عصرين بقياس مساقى البعد ، فأرجو أن نكون على وفاق فيما ذكرتُ وذكرتُ ،

وموضع الوفاق بين مقال الأستاذ وما قلت أننا لا ينبغي أن نقيس علم السابقين إلى علم المحدثين ، فليست المقارنة بين مقدار ما نعلم ومقدار ما يعلمون ، وإنما المقارنة بين الملكات في الزمن الماضي ، والملكات في الزمن الحاضر ، وهذا ما يختلف عليه ؛ إذ لا موجب عندي لأن تكون ملكات النابغين في عصرنا أقل مما كانت في عصر الأقدمين

إن النبوغ صفة في أصحابها وليست صفة في غيرهم ، فإذا تعلم غير النابغين أو لم يتعلموا فصفة النبوغ باقية في أصحابها سواء ظهروا بين المتعلمين أو ظهروا بين الجهلاء . وكل ما هنالك من فرق أن النابغة الذي يظهر بين المتعلمين أنبغ من زميله الذي يظهر بين الجهلاء ، وتلك شهادة للنابغين في العصر الحديث تضاف إلى ميزان الحسنات والمرجحات

ومسافة البعد بين النابغ القديم ومعاصريه ، هي مسافة البعد بين نابغينا وأبناء عصرنا إذا نحن تجاوزنا مسألة التعليم ووفرة المتعلمين ، لأن النبوغ ملكة مطبوعة ، والمسافة بين المطبوعين وغير المطبوعين اليوم هي المسافة بين الفريقين قبل مائة عام أو ألف عام . فليس فضل إديسون في زماننا أنه يعرف في علم الضوء وعلم الصوت ما ليس يعرفه أبناء عصره ،

ولكننا فضله أنه نابغ وهم غير نابغين ، فأفاد بالعلم اليسير ما لم يفده الآخرون بالعلم الغزير ، وظلت المسافة بينهم وبينه في النبوغ كالمسافة بين أرخميد ومن عاصروه من غير النابغين ، وإن اختلف العصران في شيوع العلم وكثرة المتعلمين

يقول الأستاذ الفاضل : « مقياس النابغة في نظري أن يفوق أهل زمانه ويسبقهم في فنه أو علمه أو أدبه حتى لا يدركوه إلا بعد أزمان ، وعلى مقدار هذا السبق يكون النبوغ . فسيديوه نابغة في النحو ، لأنه رأى من قواعده ما عجز أهل زمانه عن النظر إليه ،

وأنا أقول كما يقول الأستاذ : إن النابغة يفوق أهل زمانه في معرض من معارض العلوم والفنون ، ولكني لا أقول إن عصرنا لم ينجب أمثال سيديوه ، بل أقول إن سيديوه لو عاش في عصرنا لما فاق نوابغه الأحياء ، وإن نوابغنا الأحياء لو عاشوا في عصره لما قصرُوا عن شأوه ، لأن الملكات التي تعرف وحدة الاسماء والأفعال بين لغات أوروبا ولغات آسيا لا تقل عن الملكات التي تعرف الوحدة أو الاختلاف بين قبيلة وقبيلة من أبناء البادية ، لا لأن الأمر يرجع إلى كثرة المتعلمين عندنا وقلة المتعلمين قبل نيف وعشرة قرون

وعندي أن المعاصرين ينظرون إلى نوابغهم وأبطالهم كما كان الأقدمون ينظرون إلى النوابغ والأبطال في عصورهم إلا من كان منهم موسوماً بسمة الدين أو محوطاً بهالة الإيمان . فالأستاذ يقول إن نابليون ظهر ، فاستعبد الناس وأجرى الدماء أنهاراً وقلب الممالك رأساً على عقب ودوخ الدنيا فكان نابغة حقاً في ناحية . وبيننا الآن في عصرنا من هم أعلم منه بفنون الحرب ومن هم أقوى منه إرادة وأبعد نظراً ، ولكن من الصعب أن نسميهم نوابغ ، لأن الناس ليسوا مغفلين كما كانوا أيام نابليون ، ولأنه وحده كان هو القاهر المرید ومن حوله كانوا المنفذين للأمورين ، فظهر ولم يظهروا ، ونبغ ولم ينبغ بجانبه إلا قليل .

فليت الأمر كما يبشرنا الأستاذ من هذه الناحية ؛ إنما الواقع أن أحداً من أبناء القرن الثاني عشر لم يناد بأن الأمبراطور معصوم كما ينادى الفاشيون من أبناء القرن العشرين بعصمة والدوتشي ، وطاعته بغير تفكير ولا امتعاض

ولقد كان المشركون ينكرون النبي عليه السلام ولا ينكرون منه إلا أنه ، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق . . . ترى هل كان الأنبياء فيما مضى لا يأكلون طعاما ولا يمشون في سوق ؟ كلا بل كانوا يأكلون ويمشون ، ولكنهم بعدوا واحتجوا بخيل إلى غير معاصريهم أنهم مختلفون

ومن العلل التي تجنح بعضهم إلى تهيب السلف الصالح ، أننا ننظر إليهم كما ننظر إلى الآباء والأجداد ، كأنهم كبار ونحن صغار ، لأنهم ولدوا قبلنا بمائة عام أو مئات من الأعوام ، وينسى المتحيون أن السابقين كانوا أطفالا في سن الطفولة وأتينا سنصبح شيوخا مع السنين أو نربي في الشيخوخة على أولئك الآباء والأجداد

ومن تلك العلل ما أومأنا إليه في مقالنا الأول عن سهو الذين يقارنون بين الماضي والحاضر فيجعلونهما كفتين تتساويان في نطاق الزمان والمكان ، مع أن الحاضر زمن واحد والماضي حاضر قد تكرر عشرات ومئات

وعندنا نحن الوارثين للثقافة العربية سبيان آخران لا يلحظان بهذه القوة في جميع الشعوب : أحدهما أن العربي يعتز بالأنساب وينوط الفخار كله بماضيه ، لأنه سلالة من القبائل التي تغلب فيها العصبية وترسخ فيها الأصول

والثاني أن الماضي أقرب إلى منشأ الدين ، فيخيل لنا أن الأقدم فالأقدم هو الأصح فالأصلح والأعلم فالأعلم ، وإن لم تدلنا الدلائل على اطراد هذا القياس

تلك الأسباب كلها خليفة أن تضاعف احتراشنا كلما عمدنا إلى الموازنة بين حاضر وغائب وقريب وبعيد . فهي صنعة تؤخذ من كفة الأقدمين وتضاف إلى كفة المحدثين في ميزان الانصاف . وما لا شك فيه أن ملكات النبوغ لا تقل في عصرنا بل هي أحجب أن تزيد وتنشط ، بل هي قد زادت ونشطت فعلا باتساع مجال السعي والمنافسة والتفكير والاستنباط ؛ وما لا شك فيه أن الأقدمين لم ينظروا إلى معاصريهم إلا كما ننظر نحن إلى معاصرينا ، وأنهم لم يشعروا قط بتلك الهابة التي نضفيها عليهم الآن ولا بذلك الترجيح الذي نمحضهم إياه . أما أنهم كانوا يرون نوابغهم وأبطالهم

والواقع أن نابليون لم يحسر يوماً على صنيع كالذي صنعه الفوهرر ، قبل ثلاث سنوات من « تطهير » البلاد بلا محاكمة ولا سؤال

وقد كان « لفين » ينحى على القديسين ، ولا يعترف للعظماء بأثر في توجيه التاريخ إلى الأثر الذي يعترف به الشيوعيون ، فلما مات أقاموا له ضريحاً لم يحلم به كاهن ولا راهب في عهد القياصرة أو عهد الكنائس والقديسين

وإننا لنسمع كل يوم عن الألوف التي تندفع حول نوابغ الصور المتحركة للظفر بتوقيع بطاقة أو صورة شمسية ، كما نسمع بالألوف التي تندفع من أجل هذا حول أبطال الألعاب الرياضية وأبطال السياحة والطيران وأشباههم من أصحاب الشهرة في كل ميدان يتصل بالجاهير . أما العلماء والأدباء فمن نبغ منهم واشتهر فليس نصيبه من الإعجاب والجزاء بأقل من نصيب أمثاله قبل أجيال وأحقاب ، ومن لم ينبغ ولم يشتهر فله قرناء يماثلونه بؤسا وغنا وشظفا في أقرب العصور وأبعد العصور

لا ، بل نحن لا نستثنى أصحاب المكانة الدينية على إطلاق الاستثناء ، فما يربحه الدعاة باسم الدين اليوم لا يقل عما كانوا يربحونه في الأيام الخالية ؛ والثقة بأغاخان لليوم وهو يعيش في أوربا عيشة المترفين المطلقين لا تقل عن الثقة بإمام زاهد عاكف على العبادة كان يعيش في صومعته قبل عصر الكشف والاختراع

ولم تنفرد نحن با كبار البعيد في الزمان أو المكان وترجيحه على أنداده وقرنائه الذين نراهم رأى العين ونعرفهم بالمصاحبة واللقاء ، فقد بما كانوا يقولون إن زامر الحى لا يحظى باطراب ، وقد بما كان الجاحظ يكتب الرسائل وينحلها الكتاب الأسبقين ليحظى بالأصغاء والتقريظ

وأحسب أن إثارة الماضي على هذا النمط له علة شائعة بل علل شائعة لا تنحصر في وقت ولا يتخلو منها قبيل فالماضي يشبه المثل الأعلى لأنه غائب عن الانظار كالمثل الأعلى في هلالته وخيالته ، أما الحاضر فهو كالواقع المحسوس الذي نجب أبدأ أن تتجاوزه ونطمح إلى ما وراءه